الفصل الثاني

كناسة الشُّعراء

obeikandl.com

مَنْ هم «كُناسة الشُّعراء»؟ ولماذا رميتهم بهذه الصفة المشينة؟ وكيف استحقوا تلك المنزلة الدنيا وكُبْكِبُوا إلى هذا الدرك الأسفل في سوق الكُنَى والألقاب؟ وما هي مناسبة الحديث عن هذا الصنف الرخيص وتلك الطبقة السفلى من الشعراء، في الوقت الذي نُحلِّق في الأُفق مع الشعراء العمالقة الأفذاذ؟!

لعلَّ الذي دعاني إلى الحديث عن هذا الجانب المظلم أوْ الطابور الخامس من الشُّعراء، الذين وصمناهم بـ«كناسة الشُّعراء»؛ هو من باب التمييز بين الأُصلاء والأدعياء، بين الجمال والقبح، أوْ بين منهج حسَّان وبشَّار!

فالشيء بنقيضه يُعرَف، وبضدها تتميز الأشياءُ!

(كناسة الشُّعراء) هم أرخص طوائف الأدباء، إنهم الشُّعراء الذين أفرزوا نفايات الشِّعر، وحامض الثقافة، حتى صنعوا حاجزاً مريراً، وسداً منيعاً بين الشّعر والجمهور، مما حدا بناقد حداثي من كتائبهم أن يُصدر كتاباً أسماه (زمن الرواية) كأنه يريد أن يقول للناس ما عاد الشِّعر ديوان العرب، فقد مضى زمانه وزالتْ دولته وانتهى عصره!

(كناسة الشُّعراء) هم الذين ارتضوا لأنفسهم تلك المهانة، وألقوا بأنفسهم في التيه والوحل، ومجاهل السبل، وغيابات الوهم والضياع .. لأنهم كذبوا على أنفسهم، واختاروا الضلال على الرشاد، واستحبوا العمى على الهدى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير!

وقد تصدَّى كثير من الأدباء والمفكرين لهذا الصنف المتلوِّن من الشُّعراء والكُتَّاب، الذين يُلْبِسون الحق بالباطل، والذين يُزيّنون للطاغية سوء عمله فيراه حسناً!

فالحرف العربي –كما يصفه الدكتور يوسف عز الدين«: نفحة في رياض المعرفة، وقبس من نور الفكر الوهّاج .. يرفع النفس من تدنّيها، ويدفع المخلصين إلى حمل

رسالة الفكر الحر. والويل لأولئك الذين باعوه بثمن بخس، ذلّة للحاكم، وتمسّح كاذب لكل ذي جاه.

إنَّ الحرف العربي المشرق يأبى إلاَّ أن يصاحب النفوس الكريمة، والأنامل الأبية، لأنَّ الإسلام ما جاء إلاَّ ليتمِّم مكارم الأخلاق ويبعد الغلّ عن النفوس والذلّ من القلوب الواعية المؤمنة برسالة الله الخالدة.

كيف يكون كاتباً من عاش في حمأة الذل؟ وكيف يكون عالماً من يفاخر بالاعتداء على الناس، ويباهي بقربه للظالمين والطغاة؟! ورسالتنا هي الوقوف بالمرصاد لأدعياء العلم وتطهير صفوفه من رجسهم وبذاءتهم لكيْ يسفر ضاحك المُحيَّا، يفتح آفاق المخلصين على عالم واسع رحب من الإيمان والخير والتسامح.

شعراء البلاط

يأتي في طليعة كُناسة الشُّعراء (شعراء البلاط) الذين هم أبواق الأنظمة في كل عصر، أوْ ما يشبه أجهزة الإعلام الرسمية وكُتَّاب السلطة في عصرنا هذا .. وهؤلاء الشعراء هم أنصار الحُكْم لا أنصار المذهب، فإذا تغير الحُكم تغير اتجاههم .. شعارهم المثل القائل: دُرْ مع الأيام إذا دارتْ! أوْ قول الشاعر:

ودارِهم ما دُمْتَ في دارهم وأرْضِهِم ما دُمْتَ في أرضهم!

فهو اشتراكي في عهد الاشتراكيين، ورأسمالي في عهد الرأسماليين، وهو مَلَكِي مع المَلَكيّين، وجمهوري مع الجمهوريين!

وظاهرة نفاق الأدباء والكُتَّاب والفنانين للسلطة ليست ظاهرة حديثة، بلْ هي موجودة منذ وُجدتْ السلطة ووُجدَ الأدباء والفنانون والكتَّاب، فالعلاقة بين السلطة والمثقفين هي علاقة جذب وطرد في نفس الوقت، والأديب أوْ الشَّاعر باعتباره بشراً يمكن أن تغريه امتيازات السلطة وموائد السلطان، بغض النظر عن

موقفه الفكري!

فما الذي يدعو «المثقّف» لأن يُنافِق السلطة؟

فمثلاً، نجد «أبا حيان التوحيدي» يهدي كتابه الشهير «الإمتاع والمؤانسة» (عام ٨١٥ هـ) إلى «السلطان الأعظم مالك رقاب الأُمَم، مولى ملوك العرب والعجم، باسط الأمن والأمان ناشر العدل والإحسان، أبي المفاخر، فخر الدنيا والدين، سليمان بن غازي محمد الأيوبي، خلّدَ الله تعالى مملكته وسلطانه وأعلى في الخافقيْن عزه وبرهانه».

وهكذا وجد التوحيدي فضائل الملائكة في حاكم «بشر» مارس حكماً ديكتاتورياً شأنه شأن سلفه وخلفه من حُكّام العرب.

الملاحظ أنه في تلك العهود، بلْ قبلها في الجاهلية، تفرَّد العرب بالتطرف في ظاهرة المديح، وأوجدوا في الشّعر باباً له قواعده وأصوله وأعلامه ومدارسه، وارتبطت هذه الظاهرة بالسلطة، فالشّاعر يمدح الحاكم ويهجو عدوه، أوْ يمدح صاحب العزّ الذي يشمله بعطفه المادي أوْ المعنوي ويهجو من يعترض طريقه أو ينافسه.

ارتبطت تلك الظاهرة أيضاً بذلك النظام الذي يرعى فيه الحاكم أوْ الثري عدداً من الكتّاب، وبالتالي فلابد أن يحدث نوع من الولاء بين المثقف والسلطة التي ترعاه، وقد حلّت الدولة بمفهومها الحديث محل النظام القبلي أوْ الفردي السابق، والدولة تعنى هنا النظام الحاكم فيها، فأصبحت الدولة هي التي ترعى «مثقفيها» أوْ تربِّي من سيصبح «مثقفها».

كما هو متعارف عليه فإنَّ النظام –أيّ نظام– يحتاج باستمرار إلى مثقف يدعمه ليؤيده، ويتبنى قضاياه، ويفلسف جرائمه ومصائبه، بأنها جاءت لمصلحة الشعب الطيّب، وتخفيفاً من أعبائه! ودعماً لمحدودي الدخل والمساكين!

لعلَّ هذه الطائفة من الأدباء والمثقفين هي التي اشمأزَّ منها الدكتور/ يوسف القرضاوي، وضاق بها ذرعاً، فعرَّض بها في قصيدته «أنا والشِّعر» إذْ يقول:

لقدْ بغَّضتْ لي الشِّعرَ في مصر شُلَّةٌ ... يبيعونه بالمال للبغي والنهب
فكمْ سافحٍ قد لقّبوه بفاتحٍ ... وكمْ مسرفٍ سمَّوهُ ذا الكرم الرحب
وكمْ فاجرٍ باغٍ مشوا في ركابه ... وسمّوه ليثاً وهو أدنأ من كلب
وكمْ ولغتْ في حرمة الناس كفّه ... فغطوا عليها كالخضاب على الشيْب
إذا كان هذا ديْدن الشِّعر في الورى ... فما هو إلاَّ السُّمُّ في المشرب العذب

كثيراً ما تصبح الثقافة وأهلها لعبة جذابة للسلطة تستخدمها لتعزيز مكانتها، ولعلَّ أظهر مثاليْن على ذلك هما النظاميْن الشيوعي والرأسمالي، وهما المرحلة الحديثة في تطور أنظمة الحكم بعد مراحلها البدائية والقبلية والإقطاعية والصناعية .. فبعدما حكم «جمال عبد الناصر» مصر كان من أوائل ما فعله هو نشر كتابه «فلسفة الثورة» وكما يدل عليه اسمه فهو محاولة ثقافية لتبرير وتوضيح ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ في مصر، والتي قام بها العسكر، وبعده احتاج النظام المصري الجديد إلى مائة مثقف –كونوا منهم ما سُمِيَ بلجنة المائة– لكيْ يضعوا دستور النظام الاشتراكي الجديد وسموه «الميثاق» من عشرة أبواب كل باب في قضية معينة.

بعدما رحل «عبد الناصر» وركب «السادات» السلطة وحده، داس على الميثاق السابق، واحتاج إلى «المثقفين» مرة أخرى لوضع ميثاقه الجديد، فأتى بعدد من أساتذة الجامعات على رأسهم الدكتور صوفي أبو طالب –رئيس جامعة القاهرة آنذاك، لكيْ يضعوا له ورقة «الاشتراكية والديمقراطية» ويدرّسوها في المدارس والمعاهد .. وهكذا يمضي مجرى الثقافة متعرجاً بحسب احتياجات الأنظمة الحاكمة في كل عصر وفي كل مصر.

نعود –مرة أخرى– إلى حكاية (شعراء البلاط) مع الأنظمة التي عاشوا في

ظلالها، والتي أسهموا في تكريسها، ومنحها صفة الشرعية، ونفض الغربة عنها، وتبرير أخطائها وخطاياها في حق الشعوب والأوطان .. فتعالوا نقترب قليلاً من هؤلاء الشّعراء من أجل تشخيصهم نفسياً، واكتشاف الأمراض التي ابتُلوا بها، والتعرف على السبب الذي جرّأهم على شهادة الزور .. ومن ثمّ خديعة الناس، وتزييف الوعي، وخيانة الأمانة!

فما من شك أن هذا الصنف أقبح طبقات الشُّعراء، وأبغضهم عند الله، وعند الناس .. لأنهم اليد اليُمنَى من الطغيان، فهم يُؤَلِّهون الحُكَّام، ويصنعون الطواغيت، ويزيّنونَ للفرعون سوء عمله .. فيلقّبونه –زوراً وبهتاناً بـ«الواثق بالله» أوْ «المعتضد بالله» أوْ «المؤيد بالله» أوْ «المستنصر بالله» وغيرها من الكنى والألقاب الرنَّانة المدوية، أوْ كما قال الشَّاعر قديماً:

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهِرِ يحكي انتفاضاً صولةَ الأسدِ!

مع أنهم في حقيقة الأمر لا يعدون أن يكونوا سوى حكام صعاليك مستبدين، حاكمين بأمرهم أوْ بأمر الشيطان .. لكن هؤلاء الشعراء –من أسف– خلعوا عليهم من صفات المهابة والجلالة والوقار والتقديس التي لا يستحقونها بأيّ حال من الأحوال، كأن يصفون الديكتاتور بـ«أمير المؤمنين» مع أنه ما صلَّى فرضاً ولا نافلة، ولا حتى توضأ مرة في حياته! أوْ يُسَمُّونه «الحاكم بأمر الله» في الوقت الذي كان يحكم بأمره هو وأمر الشيطان، ويمنع ويُحرّم على الناس الأطعمة والمشارب التي أحلّها الله لعباده! وفي العصر الحديث كان أحدهم يُلَقَّب «بالزعيم المُلهَم» مع أنه هو الذي تجرَّع الهزائم القاسية الواحدة تلو الأخرى.

أَسَدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ... صفراء تنفر من صفير الصافر!

وآخر لَقَّبوه «بالرئيس المؤمن» وهو الذي كان يرمي المُصلحِين بأقذع الألفاظ، ويتهمهم بأنهم «عملاء وخونة»!

سريـع إلى ابـن العـم يلطـم خـده ولـيس إلى داعِ النـدى بسريـع!

لذلك؛ لمْ يتجاوز الحقيقة المفكر «عبد الرحمن الكواكبي» عندما قال: «إنه ما من مُستبدٍ سياسي إلاَّ ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله»! لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه كما فعل «فرعون» وقد تكون خافية مستترة، وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون»! وهذا ما فعله جميع الطغـاة على مدار التاريخ. فالحاكم المستبد أوْ الديكتاتور أوْ الطاغية لا يخضع للمساءلة، ولا للمحاسبة، ولا للرقابة من أي نوع .. ومن هنا ينبغي علينا ألاَّ ننـدهش عندما نقرأ في كتب التراث أن الوليد بن عبد الملك استفسر ذات مرة في عجب: «أيمكن للخليفة أن يُحاسَب؟!» والسؤال هنا عن الحساب من الله. دعْ عنك أن يجرؤ البشر على ذلك.

هكذا تصنع الحاشية أوْ البطانة بالطاغية من الثناء والتمجيد والتعظيم و... حتى يصلوا به إلى التألُّه، فيُرهِب هو بقية الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلّهم بالقهر والقوة وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلاَّ التزلّف له وتملّقه .. وعوام الناس يختلط في أذهانهم الإله المعبود الحق والآلهة المزعومة من الحكام المستبدين .. ولهذا خلعوا على المستبد أوْ «الطاغية» صفات الله: كولي النِّعم، والعظيم الشأن، والجليل القدر، وما إلى ذلك. وما من مستبدٍ سياسي إلاَّ ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله، أوْ تربطه برباط مع الله، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدِّين يعينونه على ظلم الناس باسم الله! وبذلك يصبح هو: الحاكم، القاهر، الواهب، المانع، الجبار، المنتقم، المقتدر، الجليل، المَلِك، المهيمن، المهيب، الركن ... إلى آخر الأسماء الحسنى التي تَسمَّى بها واحد من أعتى طغاة الشرق في تاريخنا المعاصر وهو الرئيس العراقي صدام حسين، دون أن يجد في ذلك حرجاً ولا غضاضة!

بطبيعة الحال، فإنَّ الحديث عن (شعراء البلاط) يجرّنا إلى كشف الغطاء عن فئة

«المنافقين» التي هي موجودة بين الناس في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، التي يقول عنها ابن قيّم الجوزية: «كاد القرآن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات»!

لكن هناك من يعلِّل كثرتهم في هذا الزمان -بالذات- لأسباب كثيرة منها: تفشّي الجهل في الأُمة بسبب هيمنة التعليم اللاديني أوْ العلماني في المدارس والجامعات، وإقصاء الإسلام عن معظم مناحي الحياة، وحُكْم المسلمين بالقوانين الوضعية، وحرص الحكام والملوك على كراسي الحكم، حتى لو أدى ذلك إلى إقصاء الإسلام بالكلية، وسيطرة المنافقين على وسائل الإعلام في البلاد العربية والإسلامية وحجب الأخيار وأهل الصلاح عن ذلك.

يظهر هذا الصنف من الناس بكثرة في عصور الظلم والطغيان، وتعلو هاماتهم وترتفع أصواتهم في ظل الأنظمة الديكتاتورية، فلا أحد يظن أنه يمكن أن يظهر هذا اللون من الشعر الرخيص في أجواء ترفرف فيها رايات العدل والحرية مثل عهد الخلفاء الراشدين .. لأن الخليفة أوْ الأمير العادل لا يتخذ بطانة من المفسدين في الأرض وحملة البخور أوْ المتسلقين والمداهنين الذين يُصفّقون له في السراء والضراء، فالإنسان المستقيم أوْ السوي لا تقبل نفسه المديح والتقريظ والثناء، بلْ يضيق ذرعاً بعبارات المديح الخادعة، وبرقيات التهاني الكاذبة، لأنه يعتبر هذا نوعاً من الغش والخداع والتدليس.

لذا، نجد الإمام أبا حامد الغزالي يقول في ذم المدح وكراهيته في كتابه «روضة الطالبين وعمدة السالكين» بأن في المدح ست آفات: «أربع في المادح واثنان في الممدوح. فأمَّا التي في المادح فالأولى أنه قد يفرط في المدح حتى ينتهي إلى الكذب. وثانيها أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مُظهِر للحب. وقد لا يكون كذلك أو أنه قد

لا يكون معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً. وثالثها أنه قد يقول ما لا يتحققه فيكون كاذباً مزكياً من لمْ يزكِّه الله تعالى، وهذا هلاك. ورابعها أنه قد يُفرِح الممدوح وهو ظالم أوْ فاسق، وذلك غير جائز، لأنَّ الله تعالى يغضب إذا مُدِحَ الفاسق.

أمَّا الممدوح فيضيره بالمدح من وجهين: أحدهما أنه يحدث فيه كِبراً وعُجْباً، وهما مُهلِكان. والثاني أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، وقلّ تشمره لأمر آخرته. فإنْ سَلِمَ المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس».

تروي لنا كُتُب التاريخ والفقه والسِيَر كثيراً من قصص الخلفاء الراشدين والأمراء الصالحين الذين كانوا ينفرون من عبارات المديح، ويضيقون ذرعاً بالمدّاحين –مع أنهم أهل لهذا الثناء، بلْ إنهم بأعمالهم الجليلة وسيرهم العظيمة فوق مستوى المدح والتكريم والاحتفاء– لكن زهدهم منعهم من أن يستمعوا لمثل هذا الثناء.

نذكر بعضاً منها على سبيل المثال –لا الحصر: جاء رجل يمدح الصدِّيق أبا بكر .. ماذا فعل الصدِّيق .. هل أمر له بمكافأة من بيت مال المسلمين .. أمْ أسند إليه ولاية أوْ ضيعة يتبوأ منها حيث يشاء؟! لا .. لمْ يحدث هذا ولا ذاك، ولا ينبغي أن يحدث مع خليفة مثل «الصدّيق» الذي أجاع بطنه ليشبع الرعية. لكن الذي حدث هو أن أشاح بوجهه غاضباً منه ومزدرياً له، وهو يقول: «اللهمَّ اجعلني خيراً مما يظنّون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون».

وجاء آخر يمدح الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قائلاً له: والله ما رأينا بعد رسول الله أفضل منك يا عمر! ماذا فعل «عمر» عندما سمع مثل هذا «المانشيت» الصارخ في النفاق؟ هل ألقى عليه بُردَته، أوْ أمر له بعطاءٍ وفير؟

لا .. لا يمكن أن يحدث مثل هذا العبث من خليفة اشتُهِر بالعدل وحمل الناس

على الجادّة.

إنما الذي حدث هو أن أمر بجلد هذا الرجل .. بعد أن خذله على الملأ قائلاً له: كَذبتَ والله .. إنَّ ليلةً في حياة أبي بكر خير من عُمر وآلِ عمر.

وجاء أحد المنافقين يمدح الإمام علي –كرم الله وجهه– فإذا الإمام يرجمه بكلمة تتصدّع من وقعها الجبال الرواسي. حيث قال: أنا دون ما قلت، وأكبر مما في نفسك أيها المنافق!

وقصة الخليفة «عمر بن عبد العزيز» مع الشعراء معروفة للجميع. عندما استُخلِف، وقد وفَدَ إليه الشّعراء كما كانوا يفِدون إلى الخلفاء الأمويين من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول .. وقال للحاجب: اطردهم، فوا الله لا دخلوا عليّ أبداً. فقال الحاجب: إنَّ منهم ابن عمك عمر بن أبي ربيعة. فقال الخليفة: أبعده عني لا قرّب الله قرابته ..!

هكذا كان شأن الخلفاء الأمناء على دينهم ودنياهم، فلا حاجة لهم في المدح والثناء والتقريظ الذي يضر ولا ينفع .. لكن الأمر مختلف تماماً مع الجبابرة والمستبدين وحُكّام الجور الذين يشترون بالذهب والفضة ألسنة المنافقين ليمدحوهم بالخطب العصماء والأشعار، وآخرين يكتبون المقالات المسلسلة ويملأون وسائل الإعلام ضجيجاً بشعارات زائفة كالحرية والاشتراكية والديمقراطية والرخاء والأمن والخير الوفير و...!

من أسف، أن نجد في تراثنا الأدبي نماذج صارخة، وألواناً كريهة، من النِّفاق الفج، والمدائح الممجوجة، التي أفرزها «شعراء البلاط» في العصور الماضية .. والتي –من أسف– يُقرّرها «المسئولون» على طلاب المدارس والمعاهد والجامعات، كأنهم يتواصون بسخيف القول وشهادات الزور والبهتان، ليخلقوا أجيالاً «صاعدة» من المنافقين والمُهرِّجين وسوف نعرض بعض هذه النماذج السيئة للتدليل على صدق

ما نقول، متجاهلين ذكر أسماء أصحابها عمداً، لسوء صنيعهم، وكراهية لهم ولحكّامهم الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد!

فعلى سبيل المثال؛ هذا واحد من الشعراء المنافقين يمدح عبد الملك بن مروان مُكرّساً «نظرية التفويض الإلهي» لبني أُمية، لكيْ يمارسوا الحكم، فهم أجدر الناس به وأقدرهم عليه!:

وقد جعل الله الخلافة فيكم ... بأبيض، لا عاري الخِوان ولا جدب

ولكن رآه الله موضع حقها ... على رغم أعداء وصدادة كذب

وهو الشّاعر نفسه الذي مدح بِشْر بن مروان بقوله:

أعطاكم الله ما أنتم أحق به ... إذا الملوك على أمثاله اقترعوا

وهذا شاعر آخر يمدح عبد الملك بن مروان، قائلاً:

الله طوقك الخلافة والهدى ... الله ليس لما قضى تبديل

وَلِيَ الخلافة والكرامة أهلها ... فالملك أفيح والعطاء جزيل

ويمدح عبد الملك بن مروان –مرة أخرى– بقوله:

أنت الأمين أمين الله لا سرف ... فتيا وليت ولا هيابة ورع

أنت المبارك يهدي الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

يا آل مروان إنَّ الله فضَّلكم ... فضلاً عظيما على من دينه البدع

وقوله أيضاً لعبد الملك:

والله قدّر أن تكون خليفة ... خير البرية وارتضاك المرتضي

أعطاك ربك من جزيل عطائه ... ملكاً كعوب قناته لمْ ترفض

وذاك شاعر آخر من شعراء البلاط يمدح هذا المَلِك الأموي المستبد –جازماً بأنَّ الله جعل له الخلافة ونصره على أعدائه نصراً عزيزاً. – والمقصود بالأعداء هنا هو

الخليفة الشرعي - آنذاك - عبد الله بن الزبير وأتباعه من علماء وفقهاء الحجاز - يقول الشَّاعر:

فالأرض لله ولاّها خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب
فأصبح الله ولى الأمر خيرهم ... بعد اختلاف وصدع غير مشعوب

وهذا شاعر آخر يمدح الوليد بن عبد الملك، مُصرِّحاً بأنَّ الله اصطفاه للخلافة ورفع قومه على غيرهم بكثرة محامدهم ومحاسنهم! (جدير بالذكر أن هؤلاء الخلفاء الممدوحين هم الذين قال عنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز: «والله لوْ جاءت كل أُمةٍ بخطاياها، وجاء بنو أُمية بخطايا الحَجّاج الثقفي، لرجحتْ كَفَّة بني أُمية» يقول الشَّاعر مادحاً الوليد:

يكفي الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به تزجى الخواتيم
يا آل مروان إن الله فضَّلكم ... فضلاً قديماً وفي المسعاة تقديم

مألوف في سيرة الحكم الفردي؛ الإغداق على رجال البلاط وجوقة المنافقين، في المقابل الشح والمنع والحرمان للمخالفين والمعارضين .. فالملق والنفاق باب واسع إلى الثراء والرفاهة. وهل ضاع دين الله ودنيا الناس إلاَّ بهذا المنطق الوضيع؟ لقد ذهب رباط المبادئ وبقي رباط المآرب والمنافع، ذهب الحب والبغض في الله، وبقي الحب والبغض لدنيا تُنال أوْ لشخصٍ يُلتمس في جواره الجاه والمال .. وكلنا يعرف قصة جرير مع عبد الملك بن مروان، حيث أنشده الشّاعر قصيدته التي يقول فيها:

ألستم خير من ركِب المطايا؟! ... وأندىَ العالمين بطون راحِ!

فطرب عبد الملك طرباً شديداً، وقال: بلى نحن كذلك .. خير من ركب المطايا، وأسخى الناس أيادي .. وانفتح بيت المال ليأخذ الشّاعر منه ما يشتهي! وعطايا الخلفاء للمدّاحين بلا حساب.

والضمير المسلم يتساءل بألم وحسرة: ألهذا أُنْشِئَ بيت المال .. أموال الأُمة

وثرواتها تُنفَق على هذه الأغراض الوضيعة وعلى هؤلاء المنتفعين والمأجورين من شعراء السلطان وحواريه وجواريه ... إنّ هذا لشيءٌ عُجَاب!

وتحضرني قصة المرأة التي جاءت إلى معاوية، فأعطاها ما شاءت وزادها، ثم سألها: أوَ لَوْ كان «عَليّ» حيّاً .. أكان يعطيكِ هكذا؟ فقالت المرأة: لا .. لأنّ عَلِيّاً كان يخشى الله!

ومن هذا القبيل -أيضاً- ما قيل بمناسبة زيارة الوفد المصري إلى واشنطن عقب اتفاق «كامب ديفيد» وكان يضم أكثر من مائة شخص، وأقيم لهم حفل طعام في البيت الأبيض، فكتب صحفي أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير، وقال: إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدِّم ماله لمثل هذه الأغراض! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات، ولم تتحملها الدولة! نعم إن المال العام ليس كلأً مباحاً يتخوّض فيه الحاكمون بغير حق، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تُحترَم بها الدولة.

الحديث في هذا الموضوع ذو شجون، فقصة تجرّ قصة، وحكاية تهتف بأخرى .. فلا أحد يستطع أن يحصي تلك الأموال الطائلة -أموال الأمّة- التي راحت في غير موضعها، كالتي أُلقيتْ تحت أقدام الجواري، أوْ التي أُنفِقَتْ على طوابير المُهرجين، والشعراء المادحين، وحفلات الأغاني ومهرجانات الأفلام ..!

تذكر كتب الأدب أنه لَمَّا أفْضَتْ الخلافة إلى بني العباس، وملك الأمر عبد الله السفَّاح، جاءه شاعر من ذات الجوقة ،لذين يتكسّبون بالشِّعر، فأنشده هذه الأبيات:

دونكموهـا يـا بنـي هاشـم ... فجدّدوا ميراثها لا تعْدَموا منكـم لها
دونكموهـا فالبسـوا تاجهـا ... لابسـا الطامسـا
خلافـة الله وسـلطانه ... ومنـبر كـان لكـم دارسـا
قـد ساسـها قـبلكم ساسـة ... لم يتركـوا رطبـاً ولا يابسـا

لـــو خـــيِّر المنـــبر فرسانـــه ... مـــا اختـــار إلاَّ مـــنكم فارســـا
والملـــك لـــو شـــوور في ساســـة ... مـــا اختـــار إلاَّ منكـــم سائســـا
لم يُبـــقَ عبـــد الله بالشـــام مـــن ... آل أبي العـــاص امـــرءاً عاطســـا
فلســـت مـــن أن تملكوهـــا إلى ... مهـــبط عيســـى، منكـــم آيســـا ...

قال الرواة: فأمر له الخليفة بمائة ألف درهم، وقال له: سلْ حوائجك! فقال الشَّاعر: ترضى عن سليمان بن حبيب وتوليه الأهواز! فأمر الخليفة بجعل سليمان أميراً على الأهواز.

وفي تعقيبه على هذه الرواية يقول الشيخ محمد الغزالي: هكذا -باسم الإسلام- نُهِبَ مال الأُمَّة، ونِيلتْ مناصبها الكبرى، وتمنَّى الشاعر أن تظل الخلافة في عائلة العباس إلى نزول عيسى ابن مريم .. وقد خَيَّبَ الله الأمل! وزالت تلك الخلافة بعدما عانى الإسلام منها البلاء الشديد».

وهذا شاعر آخر من معسكر المزوِّرين يمدح «الأمين» ويضفي عليه من الصفات الإلهية والجلال القدسي ما لا يطلق إلا على الله ذي الجلال والإكرام -وحده- إذْ يقول ذلك الشَّاعر:

ألا يـــا خـــير مـــن رأت العيـــونُ ... نظـــرُكَ لا يُحـــسُّ ولا يكـــون
وفضـــلك لا يُحـــدُّ ولا يجـــارى ... ولا تحـــوي حيازتـــه الظنـــونُ
فأنـــت نســـيج وحـــدك لا شـــبيه ... نُحاشـــيه عليـــه ولا خـــدينُ
كـــأنّ المُلـــكَ لمْ يـــكُ قبـــل شـــيئاً ... إلى أن قـــام بالمُلْـــكِ الأمـــينُ !

وهذا شاعر آخر من طابور المدَّاحين، وصلت به المبالغة في مدح «المأمون» إلى الحد الذي جعل الحُكم وقفاً عليه إلى يوم القيامة! وأنَّ القَدَر يخاف من المأمون! بلْ جعل المأمون في سياسته أفضل من أبي بكر وعمر! ولا جدوى ولا أهمية للشمس والقمر مع وجوده!

يقول هذا الشَّاعر –الذي باع آخرته بدنيا غيره!:

يـا وارث المُلـك إن المُلـك محتبسٌ ... وقْـفٌ عليـكَ إلى أن تُـنشَر الصـورُ
لمْ يـذكر الجـود إلاَّ خضـتَ واديـه ... ولا انـتُضي السيف إلاَّ خافـك القـدرُ
مـا ضرّ مـن أصبح المـأمون سائسـه ... إنْ لمْ يسسْـهُ أبـو بـكر ولا عمـرُ
ومـا عـلى الأرض والمـأمون يملكهـا ... أنْ لا تضيء لنـا شـمسُ ولا قمـرُ!

جدير بالذكر؛ أن هؤلاء «المدّاحين» الذين أكثروا من التكسُّب بشعرهم، كانوا يُلحّون على الممدوحين في طلب الجوائز، وقد يحدث –أحياناً– أن يُعرِض عنهم الممدوحون، ويحجبوا عنهم الجوائز، فينقلب المدح إلى هجاء مقذع، لأنه لم يكن باعث المدح الإعجاب بشخصية الممدوح، وإنما الطمع في الجائزة، فلما مُنِعتْ –ذات مرة– كان رد «ابن بسَّام» على الوزير «صاعد بن مخلد» رداً حارقاً وهجاءً قاسياً:

سـجدنا للقـرود رجـاء دنيـا ... حوتهـا دوننـا أيـدي القـرودِ
فمـا نالـتْ أناملنـا لشيء ... عملنـاه سـوى ذُلِ السـجودِ !

هناك أطنان من شعر المديح الذي يتخلّله التقديس ويطفو عليه النفاق –خاصة في ظل حكم الأمويين والعباسيين– لكن يكفي من القلادة ما يحيط بالعنق!

ولمْ تكن العصور الأخيرة بأحسن حالاً مما سبقها من العصور، فالنفاق والمدائح الفجَّة أمراض متوطنة في أرض العرب، فشل في علاجها أطباء القلوب والعلماء والدعاة .. فهذا شاعر آخر من شعراء البلاط يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلاً:

مـا شـئتَ لا مـا شـاءت الأقـدارُ ... فـاحكمْ فأنـتَ الواحـدُ القهّـار
وكـأنما أنـتَ النبـيّ مُحمّـدٌ ... وكـأنما أنصـارك الأنصـار

بلْ يصل الغلو بهذا الشَّاعر إلى أن يقول:

ندعـــوه منـــتقماً عزيـــزاً قـــادراً غفّـــار موبقـــة الـــذنوب صـــفوحا
أقســـمتُ لـــولا أنْ دُعيـــتَ خليـــفةً لـــدُعِيتَ مـــن بعـــد المســـيح مســـيحا

وفي العصر الحديث، كان هناك عدد كبير من الشُّعراء -بمثابة- أداة من أدوات الشرف في بلاط الملوك والأمراء وحفلات التأبين المواليد والمناسبات التاريخية كعيد الجلوس وتولّي الإمارة والبيعة وغيرها، وهؤلاء الشُّعراء كان لهم ولاء مثلث: ولاء للخليفة العثماني، وولاء للخديوي والملوك، وولاء لممثّلي السلطة: الاستعمار والأحزاب والحكام.

فاللورد كرومر مُدِحَ في مصر، وكان هناك شعراء يسيرون في ركبه ويُسَبِّحون بحمد الإنجليز في كل مناسبة، منهم: الشاعر أحمد نسيم، وولي الدين يكن وغيرهم. فيقول نسيم في كرومر:

يـا مُنقِـذ النيـل لا ينسـى لـك النيـل يـــداً لهـــا في فـــم الإصـــلاح تقبيـــل
إنـــا نـــودّع فيـــك العـــرف أجمعـــه ومـــا لنـــا غـــير حســـن الصـــبر تعليـــل!

كما مدح الشَّاعر الساعاتي، الوزير إسماعيل صدقي، فقال:

وحبـــكَ بالإجمـــاع منـــا فصـــادح بحمـــدك غريـــد وآخـــر بـــاغم

ويمدح الساعاتي الخديوِ، فيقول:

رفـــع القواعـــد مـــن دعـــائم دولـــة عـــزّتْ بـــه فنظيرهـــا لا ينظـــر
قد طاولـتَ بالعـدل كسرى واعتلـتْ شرفـــاً وقصّر عـــن مـــداها قـــيصر!

منذ عهد قريب، وقف أحد الشُّعراء العرب في مهرجان «المربد» الذي كان يقام في العراق على عهد صدام حسين - يقول الشّاعر رافعاً راية الكُفْر صراحة ودون مواربة:

رضـيتُ بالبعـــثِ ربـاً لا شريـك لـــهُ وبالعروبـــةِ دِينـــاً لا لـــهُ ثـــاني!

هذه نماذج وشواهد شعرية مشينة، تتأذّى عند سماعها كل الكائنات، حتى

الدواب والزواحف، وربما يتورّع من سماعها أبو جهل وزميله أبو لهب وعتاة المشركين، ولولا أن القاعدة الفقهية تقول: «**ناقل الكفر ليس بكافر**» لَما تجرأتُ على نقل هذه الإفرازات الكريهة التي لا تصدر إلاَّ عن طُلاّب الدنيا، وخُدَّام الطغاة، وحاشية السلطان وكلابه وكُتّابه وزبانيته!

من ثمَّ؛ فإنني لا أجد ما أقوله بعدما قرأنا سخيف القول من الإفك المبين، وشهادات الزور، والبهتان والتزييف والمغالطات... لا أجد إلاَّ أنْ أدعوكم - جميعاً- أن تحثوا التراب في وجوه أمثال هؤلاء الشُّعراء، وأنْ تصفعوهم بالأحذية والنعال، وتلاحقوهم باللعنات، ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله إنْ كنتم مؤمنين!